

إضاءات حول شعر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

«الشعر النبطي» حين ينظمه واحد من فرسانه الكبار كالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -طيب الله ثراه- يأتي جياشاً يفيض بحرارة التجربة التي يتناولها ويحفظ في أبياته المناسبة بعفوية رائحة الأرض وأصالة الحياة البدوية.. هنا محاولة لتقديم صورة موجزة عن هذا النمط الشعري وعن واحد من أمهر صنّاعه.

نضال لطفي إبراهيم *

الشعر البدوي، أو ما يسمّى «الشعر النبطي» شعر عامّي استنبطه العرب من لهجاتهم المحلية المعبرة عن أدب القبيلة ومفاهيمها وطرأتها في التعبير، ويمتاز بعفويته وبساطة أسلوبه، لأنه انطلق من مستوى ثقافي يعبر عن البيئة المعيشة والإنسان والقضايا الحياتية الآنية باللغة المتداولة المتجردة من قيود النحو، المستلهمة لروح الفطرة. وهو ليس أفكاراً بل تجارب، وتجارب شخصية في أصفى نماذجه. ويحتل «الشعر النبطي» مكانة كبيرة، ولا سيّما في الجزيرة العربية وبادية الشام، وتعود أهميته إلى أن ما يوصله الشاعر النبطي إلينا من معانٍ من خلال قصائده لا يستطيع شاعر الفصحى إيصاله، وذلك لأنه يعبر عن الحياة بألفاظ يدركها الناس في محيطه إدراكاً تاماً، على عكس شاعر الفصحى الذي يعبر بألفاظ يصعب على الناس في الوقت الحاضر إدراكها. والشاعر النبطي ابن بيئته وسيدها في آن معاً، ابنها لأنه لا يستطيع أن يتخطاها في شعره، وسيدها لأنه يستطيع أن يتمثلها بوعي يصعد بأصله إلى أرقى الدرجات محاولاً أن يجسد فيها أسمى علامات المروءة والشجاعة والفخر والكرم. وعند الحديث عن أبناء الشعر النبطي وسادته، لا بدّ من التوقف عند قامة شعرية كبيرة، شاعر تبوأ منزلة عظيمة، وكانت له صولات وجولات في ميادين الشعر النبطي، إنه المغفور له -ياذن الله تعالى- الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الذي توقف أمام شعره كثير من الدارسين، وحاولوا إضاءة ما تضمنته من إبداع، وتبيان ما احتواه من جمال فني، وما هذه القراءة لشعر الشيخ زايد -يرحمه الله- إلا تكلمة لهذا الجهد.

نسبه وحياته

ينتمي الشيخ زايد -يرحمه الله- إلى أسرة آل نهيان التي تنتمي إلى فرع آل بوفلاح، الذي ينحدر من قبيلة بني ياس، كبرى القبائل في دولة الإمارات وأعظمها نفوذاً. ويتفق المؤرخون على أن أسرة آل نهيان كانت تتزعم قبائل بني ياس منذ أواخر القرن السابع عشر، وأصبحت أكثر الأسر احتراماً وتقديراً وشهرة في المنطقة⁽¹⁾. ولد الشيخ زايد بن سلطان عام 1918 في أبوظبي، وعاش طفولته في «قصر الحصن»، وتعلّم أصول الدين والقرآن الكريم، وفي السنة السابعة من عمره كان يجلس في مجلس والده الشيخ سلطان بن زايد، فتعلّم أصول العادات العربية، والتقاليد الأصيلة، وتعلّم الأمور السياسية والحوار السياسي، وفي مرحلة يفاعته بدأت ثقافته تكتسب بعداً جديداً، فشغف بالأدب ومعرفة الوقائع في شبه الجزيرة العربية وتاريخها، وأحبّ الشعر.

بعد وفاة والده الشيخ سلطان بن زايد انتقل الشيخ زايد إلى العين، فأمضى فيها سنوات شبابه الأولى، ثم تولّى حكمها عام 1946⁽²⁾. «وبفضل صفاته القيادية الحيوية التي ظهرت بوادرها باكراً في أبوظبي وفي الخليج كله، لم يستغرب أحد اختياره حاكماً لأبوظبي ببيعة شعبية في 6 أغسطس 1966»⁽³⁾. وقد أثمرت اجتماعاته مع حكام الإمارات المجاورة قيام الاتحاد عام 1971، حيث انتخب في الثاني من ديسمبر أول رئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة. وقد توفّي -يرحمه الله- في الثاني من نوفمبر عام 2004.



شعره

شغف الشيخ زايد بالشعر، ونظم عدداً كبيراً من القصائد الرائعة في مختلف الأغراض الشعرية، صدرت في ثلاثة دواوين، هي: «لؤلؤة للشعب»، و«غرايس من الظفرة»، و«ديوان صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان». وقد نظم في صباه عدداً من القصائد، ولكن معظمها لم يدون. ومن مميزات شعره -يرحمه الله- أنه بعيد عن التكلف، تتفجر فيه روح جديدة عذبة القوافي رقيقة الموسيقى صادقة المشاعر، وقد تطرق الشيخ زايد في شعره إلى موضوعات متنوعة مستنداً إلى التجربة الحياتية والخبرة العملية، وإلى الذخيرة المعرفية من قرآن كريم وسنة نبوية شريفة وسيرة نبوية عطرة وشعر وعادات وتقاليد. كما أن ألفاظه في مجملها سهلة واضحة صادقة معبرة منسجمة ليس فيها اضطراب، استطاع التأليف بينها بحنكته المعهودة. يقول الشيخ زايد في قصيدته «دنياً محلاً وطرها»⁽⁴⁾:

دنياً محلاً وطرها فيها زهت لأنوار
كثر الخير أو شجرها وتوفرت لأثمار
ياها السعد أو عمرها من والي الأقدار
عم البر أو بحرها وقاضت بها الأنهار

هذه الأبيات نموذج يظهر روعة تناغم الأصوات في ما بينها في قصائد الشيخ زايد بنغمة متفرّدة لا يمكن أن تخطئها الأذن. ويوظف جوانب من الحياة الاجتماعية لشعبه وموروثاته الشعبية بشكل واضح في قصائده، وللبيئة والتراث وصفاء الطبيعة الصحراوية وحب الأرض (الوطن) دورها في ذلك الزخم الانفعالي في شعره، الذي يغذيه الحنين إلى الماضي، وهذا ما بدا جلياً في قصيدته «بينونه»⁽⁵⁾:

يعل نوبانت أمزونه يسجي الظفرة أو يرويه
لين يزخر عشب بينونه والغزر تسقي سواقيها
والرمل يعشب أو يرعونه والبدو تزهي مبانيها
ويستجي م الغيث في السونه شرق والوديان يبريه
والجبل تدفق اركونه ويملي الجيعان ياربه
والغضي تنقل اطعونه لي اهموم القلب يشفيها
وان عرض يمشي على هونه بيس بالدنيا وما فيها

ومن روائع الشيخ زايد التي تظهر جودة شعره واختياره للأغراض والمقاصد ما نظمه في النصح، في قصيدته «مترى العدل يعدل براعيه»⁽⁶⁾:

أحذر ولا تشتط تندم يا جان تبغي الشئ تنضيه
يا كم واحد قبلك ازمم يركض ولا يوصل لي يبغيه
ومن الحماقه جسمه انحم ومن العيا ما تقبض ايديه
ومترى العيل يتعوض الهم ويخسر صديجه اللي حواليه
بوصيك جانك رجل تعلم إنان في امر بتعنيه
إعمل بطيب أو زين وفهم ومترى العدل يعدل براعيه
إصبر ومترى الصبر يسهم في الجزل يوم أنك توافيه
والإحترام إيعالج الهم والغير هذا ما تواحيه

ويؤكد الحس الغزلي العفيف في شعره مهارته -يرحمه الله- في تكتيف مشاعره المتدفقة بشكل عفوي صادق، كما في قصيدته «حبك ملك قلبي»⁽⁷⁾:

أنا ما سعدت بطيب وقتي ولا حسيت إلا بوجودك شفت وقتي ولداته
لك موقع في داخل القلب به حطيت حبك ملا قلبي تحكم بنضاته
لا شفت أنا شرواك ولا اتصور ولا ريت مثل الحيا تضي على الأرض بهجاته
ربي عطاك أخلاق اتميزك واحظيت حتى جميل الخود تشهد لك اصواته
شروى القمر فوق الكواكب تعلت كل شهد في حكمة الخالق وقدراته
إنت الجميل المميز لي به اتعنيت اللي أسرني بطيب أخلاق عاداته
يا هايف الخصرين يا منور بالبيت يا جيد ريم نافل عن مثيلاته
وا عيون حور تحيي بها وتميت نظرتك تشفي صوب منك ويعاته

وللشيخ زايد محاورات ومداعبات وردود شعرية كثيرة مع عدد من الشعراء الذين لهم شهرة كبيرة، منهم صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، والدكتور مانع العتيبة، وحمد بن خليفة بوشهاب، وعبدالله شيبان، وحمد بن سوقات، ومحمد بن سلطان الدرمني، وغيرهم. يقول الشيخ زايد في «تغرودة الشيخ زايد رئيس الدولة إلى الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم»⁽⁸⁾:

لِي صَابٌ شَاعِرْنَا مُحَمَّدٌ صَابُهُ قَرْمٌ أَوْ مَعْنًا مِنْ خِيَارِ اللَّأْبِهِ
لَكِنَّ عَوَقَ الْوَدِّ لِي عَايَابُهُ شَهْمٌ خَضَعُ لَلِّي يَنْبِرُ اثْيَابُهُ
عَسَاهُ يَنْعَمُ بِهِ أَوْ يَتَهَنَّبُهُ فِي خَلْوَةٍ مَا حَدَّ يَقْرَعُ بَابُهُ
مَعْدُورٌ فِي طَرَقِ الْهَوَىٰ وَسَبَابِهِ

وللتكرار مكان في شعر المغفور له -ياذن الله تعالى- الشيخ زايد، حيث إن للتكرار وظيفة إبداعية، فالشاعر يصل إليه بعد وضوح ويخرج منه إلى وضوح، فهو يمكنه من مواصلة الإبداع:

لَيْنٌ يَزْخَرُ عَشْبٌ بَيْنُونُهُ وَالغَزْرُ تَسْقِي سَوَاقِيهَا⁽⁹⁾
هَلَا ابْنُورُ الْفَجْرِ زَاخِ الظَّلَامِي هَلَا بِهِ أَلْفٌ تَرْحِيْبُهُ أَوْحِيَهُ
هَلَا بِهِ عَدْمُ مَزْنٍ فِي غَمَامِي وَمَا هَبَّتْ نَسِيمُ الْمُطْلَعِيَةِ⁽¹⁰⁾
مَنْتُوا مِنَ الْأَطْرَائِي دَانَاتٌ غَزْرٌ وَيَمِّمُ⁽¹¹⁾
يَا صَايَ الْأَطْرَائِي إِنَّتَهُ قَصْدُ اللَّزْمِ⁽¹²⁾
أَرْجُوكَ وَأَتْرَجَاكَ تَضْفِي عَلَيَّ بَصِيَّتْ وَيَمْنَايَ لَهُ فِي مَسِّ يَمْنَاكَ رَاحَاتِهِ⁽¹³⁾
نُورُ يَاضِي مِنْ مَحْيَاكُمْ مِثْلُ نُورِ الصُّبْحِ فِي الْكُونَا⁽¹⁴⁾
لِي جَمَالُهُ فَاجٍ لِي فَاجِي لَا وَلَا فِي الْحُورِ تَمْرِيحِهِ⁽¹⁵⁾
بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانِي كَمْ زَاخُوا.. مِ الْكَدْرِ ثُورِهِ⁽¹⁶⁾

وبعد، فإن هذه النماذج الشعرية على إيجازها وبساطتها يمكن أن تعطي بالتأمل دلالات عميقة. فكلماته -يرحمه الله- أسرة تثير الإعجاب، وقصائده تبت حالة شعرية عميقة فهو يظهر صورة صادقة عن نفسه وعن مشاعره. لقد أولى الأدياء والشعراء والنقاد والدارسون الشيخ زايد -يرحمه الله- عناية فائقة في أبحاثهم ودراساتهم، وكيف لا وشعره مستودع للحكمة، يسمو بالنفس في مدارج الرفعة والخير؛ ولكم يتمنى المرء أن يكون من ضمن هؤلاء الذين حاولوا إضاءة ما تضمنته شعره من إبداع وتبيان ما احتواه من جمال.

□

* نافذة أدبية مقيمة في الإمارات

01. الموقع الرسمي للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان على «الإنترنت»
http://www.sheikhzayed.com/arabic_alnahyan.htm

02. كتاب «القائد والمسيرة»، ص: 54.

03. المركز الوطني للوثائق والبحوث / تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة / شيخنا زايد
<http://www.cdr.gov.ae/ncdr/arabic/uaeGuide/ourSheikh.aspx>

04. ديوان صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، جمع وتقديم حمد خليفة بوشهاب، ص: 29.

05. المصدر السابق، ص: 58.

06. المصدر السابق، ص: 116.

07. المصدر السابق، ص: 76.

08. المصدر السابق، ص: 123.

09. المصدر السابق، ص: 58.

10. المصدر السابق، ص: 55.

11. المصدر السابق، ص: 62.

12. المصدر السابق، ص: 63.

13. المصدر السابق، ص: 78.

14. المصدر السابق، ص: 83.

15. المصدر السابق، ص: 94.

16. المصدر السابق، ص: 109.